النهار ٢٠ كانون الأوّل ٢٠١٧

الثقافة والسياسة

(الى روح جبران تويني)

علّمنا القرن العشرين أن الحضارات بائدة، وأن أشكال الثقافة حتى المبنية على تقليد مديد، معرّضة للزوال وعاجزة عن الحؤول دون تدفق امواج البربرية. لكن الثقافة في البلدان الصناعية المعاصرة التي جسّدت العلوم والتقنيات، قد تنحرف عن أهدافها وتوضع في خدمة الأنظمة الكليانيّة التي تتعارض مبادئها وممارساتها وفكرة الثقافة تحديداً. ففي عهد النازية، لم يتردد أطباء من المشاركة علمياً في ممارسات إبادة، وسرعان ما راح الفلاسفة والأدباء والمتخصصون في مجالات متنوعة يؤسسون ايديولوجيات تدعم نظريات مبسطة تعكس غرائز دفينة. وظن بعض العلماء أنهم يعززون تقدّم تخصصهم في حين أنهم كانوا يشاركون ليس في خراب بلدانهم فحسب، بل ايضاً في هدم أساس كل علم بالتحديد وهو الحرية. لذا، لا يعقل أن تتماهى الثقافة وأي مفهوم متخصص، أكان اسمها ثقافة طبية أم ادبية أم فلسفية أم علميّة. إن مشكلة فكرة الثقافة أنها تفكر في الثقافة من حيث هي كذلك، بلا سبب موجب، ولكن، في علاقاتها بمجالات أخرى ومنها السياسة. وألمانيا هي مثال لغنى ثقافتها التي لم تحل، خلال القرن التاسع عشر، دون إخفاق وحدتها السياسية بسبب من نظام كلياني ساد عشر سنوات، مما كشف مخاطر الانفصال بين الثقافة والسياسة. على نقيض ذلك، تبقى الثقافة حيّة بفضل أناس يتحلون على جانب من البساطة وبلا ادعاء ثقافي أو معرفة متخصصة، ولكنهم يجسدون مبادئ وقيماً اساسية هم مستعدون للدفاع عنها ومجازفون بحياتهم من أجلها. ما من مركز معلومات أو منظومة آلية، من شأنهما أن يمليا عليهم الخيار والتصرف اللذين يتبنونهما كأنما بلا تفكير، لأنهم يشاركون في الاجماع على الاستشراف الذي يؤلف حياة الثقافة الخفيّة، متجاوزين بذلك الأشياء المحسوسة. وأنّى لنا ألا نقر، في عصر سادت فيه المعتقلات وعمليات الإبادة لمعارضين، بالأهمية الثقافية للتضحية التي تكبّدها شهداء الحرية؟.

ليست الثقافة، بلا ريب، أساس الأخلاق، ولكن، لا قوام لها في معزل عن قيم أخلاقية ليست مجردة وإنما معيوشة في إطار زماني معيّن لحيوات وشهادات نموذجية.

الدكتور جهاد نعمان
استاذ في المعهد العالي للدكتوراه